

الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الفرنسيين

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين تسجيل فوتوغرافي أم تصوير تخيلي

د. أنساعد سميرة

جامعة حسنية بن بوعلي، الشلف

الملخص:

تزخر كتب الرحلة الفرنسية واليوميات والرسائل المؤلفة في القرنين التاسع عشر والعشرين بأدبيات تصوير الصحراء الجزائرية شرقها وغربها، بالرغم مما تحويه من مضامين وأفكار تنضوي تحت لواء الكتابة الاستعمارية.

ووفق ما سبق تهدف المداخلة إلى تتبع عدد من الرحلات والمذكرات الفرنسية المؤلفة حول الجزائر وصحرائها الممتدة والشاسعة، ومنها: كتاب "ذكريات عن الجزائر" للحقوقي ج. بول المنشور عام 1839، ومؤلف جورج روبرت "رحلة عبر الجزائر" الصادر عام 1891، وكتاب ليون فان أيرشودت في المغرب "انطباعات عن الجزائر" الصادر عام 1910،... وغيرها كثير مما عرفنا بعادات السكان في الصحراء، وممارساتهم اليومية أو الموسمية، وطبيعة الأرض الصحراوية وخصائصها المتعلقة بالجيولوجيا والغطاء النباتي والمناخ، وستدرج المداخلة في عرض موضوعات كتب الرحلة الفرنسية المرتبطة بالصحراء لتصل إلى استخلاص الصورة العامة عن صحرائنا في عيون هؤلاء الكتاب.

Résumé :

Malgré les idées et les contenus coloniaux, les livres, journaux et lettres écrites pendant le XIXe et XXe siècle contiennent de la haute littérature dans l'exposition du Sahara Algérien de l'est à l'ouest. Le but est de suivre un nombre d'oeuvres écrient sur l'Algérie. Parmi ces oeuvres (mémoires d'Algérie) de Jean-Paul publie en 1939 et l'oeuvre de Georges Robert publié en 1881 ((voyage vers l'Algérie)) et plusieurs exemples parmi d'autres qui nous font découvrir les habitudes les traditions du Sud .

أُلّف عدد كبير من الفرنسيين كتباً حول الرحلة إلى الجزائر من فرنسا، منذ العهد العثماني، وارتبطت في القرن السابع عشر بأغراض عملية جماعية منها: التبشير، والتجارة¹، واتخذت في القرن الثامن عشر الطابع الرومانسي؛ حيث أصبحت تابعة لنوازع فردية لدى كتابها، وذات مشاريع تخيلية، تجعل من الرحلة عودة إلى حياة الماضي الوديعة، المتمثلة في حضارة الشرق، والهروب من المدنية الأوربية، بما فيها من صراع²، كما أصبحت الرحلة من النشاطات الرئيسية لمثقفي أوروبا المتخصصين في الأنثروبولوجيا، والإثنوغرافيا، والعلوم الطبيعية.³

وقد تزايدت حركة التأليف في العصر الحديث (ق. 19 - 20م)؛ حول الرحلة إلى الجزائر، وتغايرت وجهات هذه الرحلات وتباينت موضوعاتها؛ لتباين اختصاصات كتابها وهواياتهم، فكان منهم الأدباء، ورجال الدين، والدبلوماسيون، والعسكريون، وقادة الحكم، والتجار، وهواة المغامرة، والصيد، والرسمون، والعلماء المستكشفون في مجالات الأنثروبولوجيا، والآثار، والجغرافيا، والطب، وعلم البيئة... وغيرها من العلوم.

وكانت الصحراء الجزائرية من الأماكن الجديدة، والمثيرة لدى الرحالين الفرنسيين، وهو ما أدى بهم إلى استكشافها، وتقديم خلاصة ما وجدوه فيها، وما شاهدوه بها من مناظر ومعالم، وما عرفوه عن عادات سكانها، وحياتهم اليومية، وأهم مناسباتهم، كل ذلك جاء مزيجاً من الانطباعة الحاملة والرومانسية، والسرد المعقلن أو المسيس وفق الأهداف الاستعمارية، نتجت عنه نصوص تنصهر فيها المعرفة بالأسطورة، والواقع بالخيال.

ويمكن التمثيل لما أُلّف في هذا الموضوع من رحلات، أثناء القرنين التاسع عشر، والعشرين الميلاديين، من لدن كتاب منهم: المحامي ج. أ. بول، والدكتور جاكو فليكس، والعسكري هنري دوفيري، وجورج روبرت، وليون فان أيرشودت، والمهندس المعماري

ألكسندر راتو، والكاتبة لويس ريجيس، والنيابي بول بورد، وأمبرواز تارديو، وجورج روبرت، والرحال ألفريد بارودون، وليون فان أيرشودت، هذه الرحلات وغيرها كثير قد اعتنى بتصوير الصحراء إما تصويرا دقيقا معتمدا على الحقيقة، والمشاهدة، والبحث والتقصي، أو حديثا ذاتيا عن الأنديجان، وعن الجزائر وصحرائها؛ جاء أحيانا مسفرا عن إعجاب الرحال بما لقيه في رحلته الصحراوية، أو هاجيا مشتكيا معتدا بما في بلاده من: نضارة هواء وطبيعة، أو حضارة شعب وبلد.

1. الرحالون ورحلاتهم:

لعله من المناسب، قبل عرض الموضوعات والأفكار التي حوتها رحلات الفرنسيين نحو الصحراء الجزائرية، إلقاء الضوء على هذه الرحلات وعلى مؤلفيها، ومن الرحالين الأوائل الذين تعيننا رحلاتهم ج. أ. بول مؤلف رحلة "ذكريات عن الجزائر أو رحلة في إفريقيا خلال شهري سبتمبر وأكتوبر 1838"⁴ ركّز فيها المؤلف على وصف العربي في خيمته، دون أن يتوغل كثيرا في الوصف؛ إذ شغلته موضوعات أخرى منها: سرد تفاصيل زيارته لمعسكر يوسف باي بمسرغين، وأحداث جولته بالسبخة البحيرة الواقعة جنوب وهران وهي التي استمتع فيها بصيد الحجل، كما اعتنى بوصف عادات الزواج وإقامة العرس، والسباق والفتازيا، فضلا عن أن ج بول لم يجتز أرض الصحراء الوسطى، وإنما بقي بمدخلها جهة عمالة وهران وقد افتتح الرّحال كتابه بكلمة موجزة عبر فيها عن الفائدة الكبيرة التي جناها من سفره إلى الجزائر، وهي مشاهدته لأشياء جديدة، وعجيبة، وغريبة أثر أن يحتفظ بها في ذاكرته فكتب عنها، ولرغبة أصدقائه في معرفة هذه الأشياء، طبعها بعد ذلك لهم.

جاء بعد بول الدكتور جاكو فليكس⁵ وألف رحلة دوّنها فيها أخبار حملة القائد كافينياك⁶ في الصحراء⁷، وقد رأى المؤلف أن رحلته تتضمن كشفا لمنطقة صحراوية جديدة،

ومثيرة، وغريبة في أناسها وأشياءها، وتعريفاً بمسالك لم يسبق لأوروبي الوصول إليها من جهة، مثلما تقدم فائدة جلية للفلاحين من المعمرين، الذين هم في حاجة إلى ربط الصلة بالصحراء والصحراويين لتنشيط التجارة في المنطقة الجنوبية وما يليها من بلدان مجاورة، ولأن الجنرال كافينياك اصطحب في حملته علماء ومتخصصين توصلوا حسبما أفاد به الرحال فيليكس جاكو إلى جنبي فوائد عظيمة من هذه الرحلة رغم ما عانوه من خوف وتعب، وكان فيليكس مؤهلاً بموضوعيته، وبخبرته التاريخية والتأليفية لجمع المتفرقات من أحاسيس فرح وحزن واستغراب تتولد عن مشاهدة الجديد، وملاحظات عن الطقس والمناخ، والجغرافيا النباتية، والوصف الطبيعي، والجيولوجي، والإثنوغرافي، وتأملات المفكر، وتمثيلات رسام الطبيعة، وتصورات الشاعر، وتعداد مراحل مشي القافلة ومدده،... وغيرها من الموضوعات التي ارتبطت دائماً بالصحراء الجزائرية.

كما استطاع العسكري الشاب هنري دوفيري تحرير رسائل إلى والده، تحكي مجريات جولته في ميزاب، لتستمر رسائله في سرد أحداث تفاوضه مع شيخ التوارق، في سبيل تسهيل مرور القوافل التجارية، داخل الصحراء، وتضم رحلته إضافة إلى ذلك، وصفاً سريعاً لمناطق صحراوية جزائرية كبسكرة، وغرداية، ومتيلي، وورقلة، وتماسين، والواد، وتقرت.⁸

أما ألكسندر راتو، فقد كتب كتاباً تضمّن خمساً وعشرين رسالة، وجهها إلى أصدقائه، وزملائه في الجيش الفرنسي، الذي عمل به مدة أربع وثلاثين سنة وكذلك وجهه بعضاً من رسائله إلى تلاميذه من خريجي المدرسة العسكرية التقنية، المختصين في الهندسة المعمارية، وقد دوّن هذه المراسلات بداية، زمن رحلته الواسعة في بلاد الجزائر، ثم أعاد كتابتها، وطبعها من جديد، دون تحديد الأسماء الدقيقة لأصدقائه، ويعود سبب اختيار راتو لهذا النوع من التأليف-الرسائل- عوض نوع الرحلة، إلى أنه لم يكن مطلعاً طليعاً جيداً على جنس الرحلة، كما أن الرسائل تجعله أكثر حرية في الكتابة، والمتصفح لكتابه يجد العديد من التفاصيل عن

تنقلت الكاتب داخل مدن الجزائر من الشرق إلى الغرب، وكان انطلاقه من مرسيليا، للتوجه نحو الجزائر العاصمة، فبلاد القبائل، وعنابة، وقالة، وقسنطينة، ثم بسكرة، وسطيف وبجاية، ودلس، ليزور مرة أخرى الجزائر، التي انطلق منها متجها نحو الجهة الغربية فمرّ على البليدة، والمدية، وتيبازة، ومليانة، ووهران، ثم تلمسان، فسيدي بلعباس، ثم وهران مرة ثانية، ومن هذه المدينة عاد إلى بلاده بحرا، ليصل في الأخير إلى منطلقه مرسيليا.⁹

عرض راتو في نهاية الرسالة الحادية عشرة بعض الأخبار السريعة، الخاصة بسفره إلى بسكرة ومنطقة الزيبان في شهر ماي من عام 1878، وهما المنطقتان الصحراويتين المحميتين لقدرة الاحتلال الفرنسي على السيطرة عليها، في حين كان راتو يحلم بتعدي بسكرة والوصول إلى تقرت وورقلة، والصحراء الكبرى دونما اهتمام كما عبر "الرحال - بمخاطرها، وسكانها، وشمسها، ورياحها الحارقة، غير أنه بدا قانعا بما حصله من مشاهد مثيرة في بسكرة والزيبان لأنها صحراويتان: "بقوة الشمس، وطبيعة الموقع، وعادات السكان".¹⁰

ومن المشاركين في التأليف الرحلي، حول الجزائر وصحرائها لويس ريحيس، وهي كاتبة فرنسية، ظهرت للقراء عام 1979م، بعملها الأول "رحلة إلى بسكرة" مقنعة بشخصية رجل، لكن شخصيتها الأنثوية بدت واضحة، واكتشفت بعد ذلك عندما كتبت: "قسنطينة رحلات وإقامات"¹¹، وهي الرحلات التي قدّم لها الكاتب مزيار، أحد الأكاديميين الفرنسيين، ثمّ ن فيها المؤلف الرحلة، واستظهر مواطن الجمال والشاعرية، فيما قدّمته الكاتبة من وصف للمظاهر الطبيعية بالجزائر، وما صاغته من أساليب تخييلية وتصويرية رقيقة حساسة، غير أن مزيار يعترض في خاتمة تقديمه للكتاب على القسوة الكبيرة التي بدت عليها الكاتبة حيال المعمرين الفرنسيين، ونقدها المتكرر لسياساتهم، ومشاريعهم، وعطفها في المقابل على العرب، ودفاعها عنهم.¹²

زارت لويس ريجيس عام 1879 انطلاقا من قسنطينة مدينة بسكرة وتعرفت على نواحيها كأولاد نايل، وسيدي عقبة، واستطاعت لويس ريجيس الرجوع إلى البلاد الجزائرية مرة أخرى فوصلت ميناء سكيكدة في اليوم الرابع من شهر مايو 1880م، ثم قصدت قسنطينة فزارت سيدي المسيد، ونعمت بإقامة دامت قرابة الشهرين، ولكنها عادت هذه المرة بسرعة إلى فرنسا، وقد اغتنمت الكاتبة فرصة تأليف رحلتها لطرق موضوعات متنوعة في التاريخ والدين، والثقافة والاجتماع، والسياسة والاقتصاد، وكان هدفها دائما في تناول هذه الموضوعات تعريف قرائها الفرنسيين بما يخص الجزائر والجزائريين، وسياسة التعمير والمعمرين.

وفي الفترة ذاتها سجل الكاتب بول بورد مجموعة من الملاحظات، والذكريات، التي أخذها الكاتب عن سفره مع النواب الفرنسيين من مرسيليا إلى الجزائر، كونه كان مراسلا صحفيا لجريدة المرشد العالمي (Moniteur universel) بفرنسا، وقد شارك في الجولة النيابية التي لم تأخذ الصفة الرسمية، فاستقبلها الشعب الجزائري بحفاوة، وكان الهدف المعلن عنه في بداية الرحلة متمثلا في حصر مشاكل السكان، ومحاولة الوصول إلى حلول ناجعة لتحقيق التنمية في الجزائر، وكان مسار الرحلة واسعا ضم مدنا من شرق الجزائر وغربها، مثلما كان النص السردي محملا بخطابات مطولة حول مسائل سياسية خصت الحكم، والتنمية، ومسألة جعل الجزائر فرنسية.¹³

وما يعيننا من كل رحلته مرحلة سفره إلى بسكرة، وهي التي افتتحها بانطباعات وأحاديث عن الصحراء، مبديا مرة استهجانه أو استغرابه مما شاهده فيها، ومرة استحسانه وانبهاره بمظاهرها، وقد ذكر في البداية ما تعرض له جنود فرنسيون ولجوا لأول مرة صحراء الجزائر، حيث صاحوا فرحين بوجود البحر، وهو في حقيقته السراب تلك الظاهرة التي لا تخفى عن أهل الصحراء: "

ويُظهر كاتب آخر أمبرواز تارديو المؤرخ والعسكري الفرنسي براعة كبيرة في تلخيص أحداث رحلته داخل الجزائر¹⁴، ومنها منطقتين صحراويتين هما: بسكرة وتقرت،

ويعد كتاب "رحلة عبر الجزائر" لجورج روبرت¹⁵ من أهم الرحلات التي سعى فيها صاحبها إلى تقديم أخبار ومعارف متكاملة، منهجة وموسوعية حول الجزائر بعماالاتها الثلاث: الجزائر قسنطينة ووهران، وأفرد فصلا كاملا هاما خصه للصحراء الجزائرية من الشرق إلى الغرب، وقد تعددت الموضوعات التي عالجها جورج روبرت حول الصحراء؛ حيث عرّف قراءه بالتكوين العام للصحراء الجزائرية، وبسكان الصحراء من العرب الرحالين والبدو المقيمين، وبالفلاحة الصحراوية، كما حدّثنا عن الجمل الحيوان المرتبط ببيئة الصحراء، ووصف لنا عملية صيد الغزلان، والنعام وطائر الحجل، وقدّم الرحال الرسام وصفا جغرافيا، ونبذة تاريخية عن أهم واحات الجزائر في الأغواط، وبوسعادة، وعين ماضي، وميزاب، وثليعة، وورقلة، وبسكرة، وأولاد نايل، وواد ريغ، وتقرت، وتماسين، والزيان، وواد سوف، وجيريفيل، وأولاد سيدي الشيخ، والأبيض، وعين صفراء، وتيوت، وتناول على هامش الحديث عن واحات العمالة الوهرانية ظاهرة الفانتازيا، ووصف تبعا لذلك الفرس العربي بطل هذه الاحتفالية، كما ضمن كتابه معلومات إثنوغرافية خست عادات السكان، وأساطيرهم، كما أعطى الرحال قيمة كبيرة لرحلته بختمه كل فصل من الرحلة بقائمة تعدد مسار ومسالك المنطقة وأهم مدنها وآبارها وعيونها وجبالها.. وغيرها من المعالم والمظاهر المساعدة للمسافر.

وكذلك ألف بارودون رحلة عنوانها بالجزائر وتونس حكاية سفر ودراسة¹⁶، ومن بين ما يعرضه الرحال لقرائه أخبارا عن زيارته لبسكرة وسيدي عقبة.

ومثل بارودون قدّم الرحال أيرشودت تفاصيل رحلته إلى الجزائر وتونس في كتاب سماه "في المغرب"¹⁷ ثم أعطاه عنوانا فرعيا هو "انطباعات حول الجزائر"، وقد تناول في

رحلته المراحل الآتية: الجزائر، وعنابة، وقسنطينة، وباتنة وبسكرة، وفي هذه الأخيرة يتوقف ليصف لقرائه صحراء صفا، ثم ينتقل بعد ذلك إلى سرد أخبار رحلته إلى تونس، ويهمننا من هذه الرحلة ما أفادنا به الرحال الكاتب عن عادات أهل بسكرة، والانطباعات والصور التي علقت بذاكرته عن جولة قام بها في سيدي عقبة.

1. سكان الصحراء الجزائرية:

من الانطباعات والأخبار التي قدّمها الرحالون عن أهل الصحراء، والعرب الأندليجان ما صاغه الرحال جأ بول عن العربي في خيمته، وعن العادات المرتبطة بالعيش داخلها، وكان قد تناول عند أحد الأصدقاء العرب غذاء لم يستسغ فيه رائحة الزبدة الموضوعة في الكسكسي ومذاقها القوي، وكان من العادات غير المعهودة عنده أيضا الجلوس على الأرض والأرجل مثنية، وقد حاول بجهد كبير تعريف الكسكسي أو الكسكسو كما قال معددا مراحل تحضير النساء العربيات له مخبرا بأن هذا الطعام يعوّض الخبز.

وأول ما لاحظته الرحال ألكسندر راتو عن سكان الصحراء أن منهم من يعيش حياة ترحال، بحثا عن أماكن ملائمة للرعي والمعيشة، وقد شاهد وهو متوجه إلى بسكرة قوافل عديدة لعرب رحل متوجهين نحو مدينة باتنة.¹⁸

وركزت لويس ريجيس في رحلتها أكثر على عادات الأندليجان بمختلف جنسياتهم، وخصوصياتهم الإثنوغرافية، لكنها خصصت صفحات أكبر للأندليجان العرب، فعرضت بالحديث عن الحياة اليومية للرجال والنساء، وكل ما لاحظته أثناء رحلاتها، مما يشكل موضوعات مثيرة وفتنازية للأوربيين، واجتهدت في إعطاء معلومات غزيرة، ودقيقة مدعمة بنصوص من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام رجال الدين، والسياسة، والمؤرخين، ومن بين موضوعات الكتاب نذكر: العيساوة، والإخوان الصلحاء، والإسلام، وكتاب القرآن الكريم، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وزوجاته¹⁹، وكذلك عادات

العرب في مزاوله أعمالهم، وزيارة النساء للمقابر يوم الجمعة، وعادة حمل الغذاء إلى المقابر، وتفصيل حول مساجد العرب المسلمين، وزواياهم، وبيوتهم، ومقاهيهم، ومطاعمهم، وحماماتهم، كما طرقت مسائل عديدة عن عادات الزواج والطلاق، ويوميات المرأة العربية، ولباسها، وأوصافها الجسدية.

ولا يختلف الرحال جورج روبرت عن سابقه في سعيه إلى التعريف في لقطات موجزة بالإنسان الصحراوي: أصوله، صفاته، أخلاقه، وعاداته وتقاليده، غير أن أخباره لا تخلو أبدا من التحيز، والعصبية والاستهزاء بالآخر من الأندليجان.

يخبر جورج روبرت قراءه ومواطنيه بأن أولاد نايل وفدوا إلى الصحراء الوسطى في القرن الحادي عشر الميلادي، "وهم اليوم- يقول الرحال- يشكلون اتحادية قوية من القبائل تحتل أراض واسعة تقع بين الزيان وبوسعادة، وجبل عمور، وهم يعيشون على زراعة القليل من الحبوب عندما يتوصلون إلى شق قنوات السقي، وكان لهم قطعان ماشية كثيرة وعدد هائل من الجمال، أما نساء أولاد نايل فهن ماهرات في الحياكة والنسيج، أما الراقصات منهن فهن يسرحن ويتنقلن بكل سهولة داخل الوطن بحثا عن دخل للمعيشة، يجنى من الرقص في المقاهي الصحراوية، وقد يدفعهن الجوع إلى ممارسة البغاء في القصور أو المدن الساحلية، وما يميزهن هو عدم الاحتفاظ بالنقود وإنما شراءها إما عقود من اللؤلؤ والمرجان، أو حلي من الذهب، كما تتميزن بطريقة تغطية الشعر، حيث تظهر رؤوسهن مرتفعة وعالية على غير عادة نساء أخريات، بما يضعنه من حلي وزينة، أما لباسهن فهو بسيط مؤلف من خرقة كبيرة، وشفافة تمسك على مستوى الكتفين بهاسكين كبيرين، وعلى مستوى الخصر بحزام، تؤدين في مجموعة رقصات سريعة ومتنوعة، عدّها الرحال مجموعة من التمارين، تتناوب بين الرقص بأغطية الرأس، أو الرقص بالبطن، أو الدوران.

ومن الملاحظات الإثنوغرافية، نجد إخبار جورج روبرت عن أهل رواغة الذين تخصصوا في حفر الآبار وكونوا اتحادية الغطاسين في منطقة وادي ريغ، التي تمتد إلى بني ميزاب غربا، وواد سوف شرقا، وهي التي تجمع واحات كثيرة كورلانة، وسيدي راشد، وتبسبت، لكن الأفضل منها واحات المرايغ بتقوت، وتماسين. ولا يفوت الرحال الفرصة ليعرّض بعمل الغطاسين، بأنه غير متقن، ويفتقد للحرفية التي يتمتع بها جنود فيلق إفريقيا²⁰، بالرغم من أن الكثير من الكتاب الفرنسيين اعترفوا بقوة غطاسي وادي ريغ.

2. المكان الصحراوي - الطبيعة المناخ والمعلم:

حاول فيليكس جاكو تقديم نظرة عامة حول الطبيعة الجيولوجية للبلاد الجزائرية، لهدف الوصول إلى فكرة ضرورية وهي أن صحراء الجزائر ليست مجرد أرض رملية قاحلة، وليست مبسوطة كبحيرة هادئة، فهي تتنوع ما بين أراض وعرة صخرية قليلة الارتفاع، تنجم عن التلال والهضاب، وطبقات من الرمل الدقيق، ومساحات نادرة قليلة خضراء مزروعة، ولذلك يتضمن كتابه وفق منهجية دقيقة أقسام الأرض الجزائرية جيولوجيا وطبيعا ابتداء من الساحل ووصولاً إلى الصحراء الكبرى، أو ما يسمى بالفلاة

ويعرض راتو للقراء صورة موجزة للطريق نحو بسكرة حيث بدت مليئة بالتلال الوعرة الواقعة على جانبي الطريق، وبين مسافة وأخرى بقايا آثار رومانية، ومع الاستمرار في المشي تزداد الطبيعة توحشا، وحدة، لحلول الصخور مكان الأراضي الخضراء المنبسطة، إلى أن تبدأ الواحات بالظهور تدريجيا بداية بواحة بسيطة وصغيرة هي واحة القنطرة، وبعد مشي عبر وديان ضيقة، ومرتفع صعب، يصل الرحال إلى أرض واسعة منبسطة تبدو منها واحات جميلة، تشكل مدينة بسكرة، غير أن الجو كان حارا جدا في شهر ماي، تصل حرارته 41 درجة، زادت من شدته رياح السيروكو الآتية من الجنوب.²¹

وعند تتبع مظاهر الاستحسان لدى الكاتبة لويس ريجيس نجدها في الغالب تميل إلى الطرف الجزائري، وإلى كل ما هو محلي، لم تصبه اليد الأجنبية بالتبديل، وهي لم تخف صداقتها مع الطبيعة، حيث استحسنت الجمال الآخاذ للمناظر الواقعة بين القنطرة: "أول مرحلة تشاهد فيها الطبيعة المشرقية حقاً"²² وبسكرة التي جعلتها تستشف: "الحياة الإقطاعية للعربي مقابل الحضارة الفرنسية، والطبيعة بحليتها الطبيعية بجانب الحداثك التي صفت بأيدي الكولون، لا تشبه بسكرة فرنسا في أي من موجوداتها."²³

أما الرحال أمبرواز تارديو فقد عدّ مدينة بسكرة ملكة الصحراء "Reine du Sahara" فالمسافر من قسنطينة يشاهد قرى بسيطة في بناياتها، وسكانها ويمر أيضا بمناطق قاحلة، غير أن واحات بسكرة التي تظهر من بعيد، تمكّن المسافر من تغيير المنظر والاستمتاع بخضرة أشجار النخيل، التي يصل عددها مئات الآلاف، ويمتدح تارديو بسكرة مركزا على روعة جوها مقارنة بباريس حيث يقول: "في فصل الشتاء، وفي الوقت الذي نتجمد فيه بباريس، الجو حار في بسكرة؛ ولهذا يأتي الأجانب إليها خلال الأوقات الباردة، إذ لا تبعد بسكرة عن باريس سوى ستين ساعة إبحارا بالمركب البخاري."²⁴

وأكد جورج روبرت ما أفاد به الرحالون السابقون مع كثير من التفصيل الدقيق عن موقع مدينة بسكرة، وخصائصها الطبيعية، ومنها أنها أول مرحلة وواحة صحراوية في عمالة قسنطينة، وهي تبعد عن باتنة بمائة وعشرين (120) كيلومترا، وقد كانت آنذاك -زمن الرحلة- موصولة بالمناطق الساحلية بخط السكة الحديدي الذي ينطلق من قسنطينة للوصول إلى باتنة ثم القنطرة فبسكرة، ويفيد الرحال من أن احتلال هذه المدينة كان عام 1944 بواسطة حملة عسكرية قادها الدوق دومال، وقد لقيت الحماية العسكرية المكونة من الأندليجان مصرعها على يد الثوار الجزائريين في الأسابيع الأولى من الاحتلال بعد بقائها

للحراسة هناك، غير أن فرقة أقوى مكونة من العساكر الفرنسيين — مثلما أخبر الرحال — عاودت الكرة، واستطاعت هذه المرة أن تبقى في المدينة لأن لا تغادرها أبدا.²⁵

ويفيد جورج روبرت من أن بسكرة زمن رحلته أي عام 1891 كانت مركز دائرة تابعة لمقاطعة باتنة، تضم إحدى وتسعين ألفا وخمسمائة نسمة، وقد كانت ذات أهمية كبيرة فهي مركز عسكري، وتجاريا، وهي أيضا العاصمة السياسية لبلاد الزاب الواسع والذي يضم عدة قرى تفصلها عن سهل الحضنة سلسلة مرتفعات وجبال²⁶، وتتصل بسكرة من الجنوب الغربي وعبر طريق صحراوي بمدينة ورقلة، مروراً بمنطقة وادي ريغ، ثم تقرت، ويمكن للمسافر اجتياز المرحلة الأولى بسكرة — تقرت على متن سيارة مجهزة وقوية، غير أن المرحلة الثانية لا يمكن قطعها إلا بواسطة الجمال ضمن قوافل، لأن به هضاب ومرتفعات كثيرة.²⁷

أما الناحية العمرانية لبسكرة، فقد ذكر الرحال أن المدينة تنقسم إلى قسمين: الأول خاص بالمعمرين وسماه بالحيّ الفرنسي المتشكل من شارع طويل به أقواس من ناحية واحدة، يؤدي إلى حصن سمي آنذاك بحصن سان جرمان اسم شخصية قائد عسكري قتل عام 1949 خلال ثورة الزعاطشة، ويحوي هذا الحصن على ثكنات عسكرية، ومستشفى ومستودع للبضائع، وخارجه نجد دائرة عسكرية، وكنيسة، ومدرسة، وسوق، وفندقين، ومجموعة من السكنات الخاصة.

وسمى الرحال القسم الثاني بحي السود، جاعلا بذلك عن عصيبة وتعالى فرنسي سكان بسكرة والأنديجان من السود العبيد المتدنين مرتبة مقارنة بسكان الحي الفرنسي، ولهذا ينعتهم بصفات ذميمة فما هو إلا ركام من الطرقات الحجرية الضيقة التي تقع على حوافها بيوت مبنية بالتراب المدكوك والقرميد المجفف بحرارة الشمس، كما أن هذا الحي يضم المقاهي الشعبية التي تنشط سهراتها راقصات من أولاد نايل، ويغنم جورج روبرت الفرصة ليصفهن، ويصف فرقهن الموسيقية مع كثير من التعريض والسخرية.

وفي مقابل هذا الوصف السلبي لمحيط الأنديجان الصحراوي، يقدّم وصفاً إيجابياً لما تحويه أرضه من مظاهر ونعم طبيعية، مثل: "الحدائق الرائعة والمسقية بمياه وادي بسكرة، بنخيلها الذي يصل إلى 150.000 تنتج تموراً ممتازة الجودة، وتحوي هذه الحدائق أيضاً كروماً، وأشجار مشمش، ورمّان، وتين، وزيتون، وعلى بعد كيلومتر واحد من بسكرة، وعلى ضفة الواد اليمنى توجد مدينة لندون، الحظيرة الكبيرة ذات مساحة هكتارين، والمشهورة بأزهارها وبأشجار الفاكهة كالموز، والبامبو، وجوز الهند، وحبوب القهوة... وعلى بعد 6 كيلومتراً من المدينة توجد محطة استجمام وحمام معدني به عين ساخنة، ويسمى حمام الصالحين.

28،

ولعل السبب في وجود التناقض بين الوصفين وصف البسكرين، ثم وصف الطبيعة هو الرغبة في تبيان أن هذه الأرض الجميلة والغنية، وهي أرض الجزائر تستحق يداً بشرية أكثر تحضراً، ورقياً، وجمالاً من هؤلاء الأنديجان، ومؤكّد أن هذا يأتي في خدمة الأهداف الاستعمارية الفرنسية، وهو من قبيل ما كرسته الكتابة الاستشراقية قديماً.

وعدّد جورج روبرت الواحات الهامة الواقعة بين بسكرة وورقلة، كما قدّم تعريفات موجزة لكل واحدة وهي: الوريغ، والمرايغ، وورلانة، تمرمة الجديدة²⁹، سيدي راشد، وتقرت التي تعد عاصمة وادي ريغ، كان عدد السكان بها يصل إلى ألف وثلاثمائة نسمة منهم القليل من الفرنسيين، وعدد السكنات فيها حوالي ثلاثمائة مبنية بالآجر المجفف تحت أشعة الشمس، تتكون أغلبها من طابق أرض وسطح، والقليل منها به طابق أول، وكل هذه المنازل تتوسطها ساحة صغيرة تجلس فيها النسوة لحياكة النسيج، وصنع الحايك الذي تختص به تقرت، وللمدينة أبواب ثلاثة هي: باب البليد وباب بسكرة وباب الخضرة، وللمدينة أكثر من عشرين مسجداً، اثنان منها مرفوعة بأعمدة من الرخام، وتقرت واحة نخيل كبيرة تصل إلى أربع مائة ألف نخلة، وآبار كثيرة حفرها الأنديجان، أو كانت من الآبار الفوارة. ومن

الواحات أيضا تماسين التي تبعد 10 كيلومتر عن تقرت، وهي تشتهر بزوايتها التابعة للطريقة التيجانية: "التي تظهر تأثيراتها على التوارق وأهل السودان".³⁰

أما منطقة الزيبان فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام الزاب الشرقي، والزاب القبلي (الجنوب)، والزاب الظهر اوي (الشمال)، ويحتاج الناس للتنقل في مسالك الزيبان دواب من الأحصنة والبغال، وتضم المنطقة الواحات الكبرى الآتية وهي: سيدي عقبة وهي العاصمة الإسلامية للزاب لاحتوائها على المسجد الذي يضم رفاة الصحابي الجليل والفاتح عقبة بن نافع رضي الله عنه، وقد أخبر الرحال دون أن يعلّق بقوله: "تنقل الروايات الشعبية بأن مئذنة المسجد ترتج كلما ذكر أحد المسلمين سيدي عقبة".³¹

ومن الواحات المعروفة بالزيبان أيضا واحة زريبة الواد التي تقل شهرة عن سيدي عقبة، وهي تعرف بقبر الولي الصالح سيدي حسان الكوفي، وخنقة سيدي ناجي التي بناها قبل مائتين وخمسين سنة الشيخ سيدي مبارك بلقاسم بن ناجي، وهي مختلفة عن الواحات الأخرى في بنائها بالحجر والرخام على يد بنائين تونسيين، وذكر الكاتب كذلك واحة الزعاطشة البعيدة عن بسكرة بست وثلاثين كيلومترا جهة الشمال الشرقي، وهي معروفة بحصار عام 1949 المنفذ على يد العساكر الفرنسيين على كل منزل، والذي قاومه سكانها ومقاومون آخرون من قبائل مجاورة مدة خمسين يوما، ليكون الهجوم والغارة، ثم إحكام القبضة على الزعاطشة، وتهديمها كليا وبنائها سنوات بعد ذلك، ويحاول في هذه المناسبة الإقلال من شأن قائد المقاومة الشيخ بوزيان، الذي عرّفه بقوله "حمال في مدينة الجزائر سابقا"³² حيث ادّعى الرحال أن الشيخ استغل حنق السكان على الضرائب المرتفعة المفروضة على مالكي النخيل، ودعاهم إلى الانتفاضة والثورة لأجل ذلك³³، غير أن الرحال سكت عن الجريمة النكراء التي اتكبت في حق السكان وحق الشيوخ الثلاثة: بوزيان، وابنه، والحاج

موسى الدرقاوي الذين نكل بهم وعلقت رؤوسهم على المقصلة نكاية وردعا للشعب الجزائري.

واستطاع الرحال أن يحدد جميع المسالك والطرق داخل صحراء عمالة قسنطينة، والأمر ذاته، حيث عدد مسالك صحراء عمالة الجزائر وصحراء عمالة وهران، وقد أظهر في وصفه العديد من الخصائص والمعالم الموجودة في كل واحة أو مدينة أو قرية، ومن أبرز المحطات الصحراوية في العمالتين يمكن ذكر في الجزائر مدينة بوسعادة، وعين ماضي، وبريان أول مدينة في الزاب، وغرداية عاصمة الزاب، وبني يزجن، والعطف، والقرارة ونقوسة، وورقلة، وبئر حاسي حاج عيسى، ومتليلي، والثليعة، أما في الغرب

كما قام الرحال أيرشودت تلخيص أهم المناظر، التي علقت بذهنه عن بسكرة، وهي صورة الحي القديم، ومنظر النساء البسكريات أثناء غسلهن للثياب بالجدول، وحدث دفن إحدى النساء من العامة، ومنظر بئس لشيخ متسول، غير أنه ختم هذه الصور البشرية بصورة طبيعية أبدى فيها إعجابه، وانبهاره بالطبيعة الصحراوية، استخدم خلال تصويره إياه تعابير رومنسية حاملة، تذكرنا بما كتبه الرحالون الفرنسيون عن المشرق العربي مثل فيكتور هيجو، وأندري جيد، وجيرا دي نرفال. وجي دي موباسان: "إنها شمس إفريقيا.. أرى في كل مكان الهواء والمساحة!... كانت الشمس جميلة جدا، وبراقة إنه زمن الشباب الغض يمر بجانب!"³⁴

خاتمة:

لا يمكن بأي حال حصر جميع الملاحظات والمواقف التي أنتجتها أيادي كتاب فرنسا في الفترة الاستعمارية، فقد كانت عديدة زحرت بها المكتبة الفرنسية، غدت شكلت الكتابة عن الجزائر وإفريقيا والشرق حركة ممتدة عبر الزمن، غير أن المؤكد أن العديد منها سلبته الأرض الصحراوية، أو دعت غرابتها وحدثها إلى استكشافها، فكانت سرديات الرحالين الفرنسيين لا

جامعة بشار ————— مخبر الدراسات الصحراوية

تخلو من وصف للأرض والرمال التي تبدو كالأمواج في البحار، ولم يمروا جميعا في حكيم دون التعرض للريح السمووم أو السيروكو، كما وصفوا العديد من المظاهر البشرية الإثنوغرافية، كالخيمة، والعرس، والفتازيا، والوليمة، وحياة التوارق، والجمال الرفيق المخلص للصحراوي،.. ولم يهملوا أيضا المظاهر الطبيعية المثيرة: كالتلال والكثبان، والجبال الصخرية، والأراضي الممتدة الرملية.

الهوامش:

1 مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام، صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط. 1، 2003، ص. 8.

2 حسين محمد فهم، أدب الرحلات، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص. 151.

3 مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام، ص. 9.

4 J. A. Bolle, Souvenirs de l'Algérie ou relation d'un voyage en Afrique, Pendant les mois de septembre et d'octobre 1838, Angoulême, Imprimerie de J. Broquisse, 1839, 276p .

5 Felix jacquot مولود عام 1819 عمل طبيبا عسكريا، وجراحا ثم أستاذا مجازا في تخصص الأمراض المعدية، كما كان محررا في مجلة Gazette الطبية بباريس، توفي شابا عن عمر يناهز الثانية والثلاثين بعد إصابته بمرض التيفوس أثناء وجوده ب، وبمشاركته عام 1847 في حملة كافينياك في الصحراء الجزائرية استطاع تأليف سرد وثائقي مدعوم برسومات أنجزها شخصا، حتى عدّ أول طبيب صحراوي، وهو من الأوائل بعد الكولونيل دوماس (Dumas) الذين وصفوا بصفة جيدة الصحراء الوسطى الجزائرية. ينظر:

P. Huard, p Lefebvre, J. L. Plessis, François-Félix Jacquot (1819- 1857), communication présentée à la séance 10 /12/ 1983 , Société Française d' histoire de la médecine, p- p. 403- 410 .

6 هو لويس أوجين كافينياك (1802 – 1857) جنرال وسياسي فرنسي، اشترك في الحرب ضد الجزائر، عمل على إبادة قبيلة بني صبيح عام 1844 حرقا في مغارة، كان حاكما للجزائر بعد ثورة 1848، وقد قضت سياسته العنيفة والإجرامية التي انتهجها في القضاء على انتفاضة عمالية بباريس على حياته السياسية عام 1948. ينظر:

فاروق قاضي، آفاق التمرد: قراءة نقدية في التاريخ الأوروبي والعربي والإسلامي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. 1، 2004، ص. 223.

7 LE Docteur Felix Jacquot, Expédition du General Cavaignac dans le Sahara Algérienne avril et mai 1847, Paris, Gideet J. Baudry Libraires Editeurs, 1849, 339p .

8 M. Henri Duveyrier, Voyage dans Le pays des Béni- Mzab, Revue Le Tour du monde, 1859. p- p. 178 192

9 Ratheau, Alexandre: l'Algérie Vue a Titre d'Ailes, ou Lettres d'un oiseau de passage, Alger, librairie algérienne et coloniale, 1879 .

10 رحلة راتو، ص. 135.

11 Régis, Louis, Voyages et Séjours, avec une introduction de A. Mézières Paris, Galmann Lévy Editeur, 1880 .

12 المصدر نفسه، ص. 2-4 (المقدمة).

13 Bourde, Paul: A travers l'Algérie, Paris, G. Charpentier Editeur, 1880 .

14 Tardieu , Ambroise: De Paris Au Sahara, Itinéraire Descriptif et archéologique aux villes Romaines de Lambèse et de Timgad, en Algérie, et visite hivernale à Biskra (Sahara), en passant par Alger, Setif, Constantine et Batna, Batna, F. Soldati, 1890 , 55p .

15 George Robert, VOYAGES A TRAVERS L'ALGERIE, NOTES ET CROQUIS, 1886- 1887, PARIS, IMPRIMERIE G. ROUGIER, 1891, 406P .

16 Alfred Baraudon, Algérie et Tunisie, Récits de Voyage et Etudes, Paris, Librairie Plon, 1893. 327 .

17 Léon Van Aershodt, Au Maghreb, Impressions d'Algérie, Bruxelles, J. Lebegue & Cie Libraires Editeurs, 1910, 110p .

18 ألكسندر راتو، رحلة...، ص. 137.

19 لم تسلم المعلومات التي قدّمها لويس ريجيس -تحت غطاء الدفاع عن الجزائريين- عن الإسلام والدعوة المحمدية من بعض الادعاءات، والأكاذيب، والتحريفات، كزعمها أن الله تعالى يأمر بمحاربة المشركين الكفار، وليس المسيحيين، وأن الرسول الكريم قد تلقى الأخبار والمعارف عن شيخين كبيرين ارتحلا في البلدان واصطحبا معها العلوم والمعارف عن الأديان المختلفة لتلقينها للرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك بدا في قرآنه الذي تزعم أنه من كلامه متأثرا بالتوراة والإنجيل، وكذلك زعمت أن رسولنا عليه أفضل الصلوات والتسليم قال ما لم يفعل، حيث جمع بين أكثر من أربع زوجات، بينما نهى المسلمون عن ذلك،... وغيرها من الادعاءات التي يتعدد موضوع هذه الدراسة عنها.

20 جورج روبرت، رحلة عبر الجزائر، ص. 374.

21 ألكسندر راتو، رحلة...، ص. 138.

22 المصدر نفسه، ص. 247.

23 المصدر نفسه، ص. 247.

24 Ambroise Tardieu, De Paris Au Sahara, p. 26

25 استخدم الرحال هذه العبارة القطعية لإيانه بأن فرنسا لن تخرج أبدا من الجزائر، وأنها ستحكم القبضة، ولن يستطيع الجزائريون التغلب عليها.

ينظر رحلة جورج روبرت، رحلة عبر الجزائر، ص. 369.

26 جورج روبرت، الرحلة، ص - ص. 369-370.

27 المصدر نفسه، ص. 373.

28 جورج روبرت، رحلة عبر الجزائر، ص. 373.

29 كتب الرحال جورج روبرت اسم الواحة بميمين بينما تعرف اليوم باسم تمرنة بالنون.

30 جورج روبرت، رحلة عبر الجزائر، ص. 379.

31 المصدر نفسه، ص. 380.

32 قام عدد كبير من شباب بسكرة بالتزوح إلى مدينة الجزائر، واشتغل الفقراء منهم بحمل المياه إلى البيوت، واشتهر البسكريون لذلك بهذه المهنة.

33 المصدر نفسه، ص. 381.

34 أيرشودت، رحلة، ص. 72-73.